المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الواحد بعد المائة

١ نوفمبر سنة ١٩٤٢ — ٢٢ شوال سنة ١٣٦١

العلم

بين النظم الدكتاتورية والديمقراطية (١)

العلم والديمقراطية ، قوّتان رئيستان من قوى العصر الحديث وهما ابداً قوتان متفاعلتان فالعلم ونتاجه النظري وتطبيقه العملي يفتح للديمقراطية ، العناصر التي توسّع من نطاقها وترسّخ من اركانها وتعمّم من نعمها . والديمقراطية ، تهيئ للعلم التربة والجوّ اللذين يركز فيهما غرسهُ وينضر وردهُ ويينع ثمرهُ . اما العلم والدكتاتورية فقوتان أبداً متنافيتان ، فهي تتحد من نتاج العلم أداة لتقييد العلم وكتم أنفاسهِ وهو يأبى القيد وإما انه يهجر الأرض التي يلقاه فيها واما ان يتحنى ويروح تحت عبئهِ ثم يذوي ولا يتنعش الا بعد مشقة ولمهلة طويل. وقد عنى كاتب اجتماعي ايطالي كبير ، من نحو عشر سنوات بتصنيف كتاب ، عنوانهُ « امتحان الدكتاتورية » وطلب الى طائفة من كبار الكتّاب ان يكتبوا فصوله ، وهي عشرون فصلاً او تزيد ، فكتب اندريه موروي ، فصلاً في « الدكتاتورية والرجل العظيم » واميل فندرفلد الاشتراكي البلجيكي فصلاً في « الاشتراكيين والدكتاتورية » ووالتر فون مولو رئيس الاكاديمية الالمانية في « الدكتاتورية والذهن الالماني » وحولياو فريرو المؤرخ الشهير من عهد قريب في « الدكتاتورية في

---

(١) الجانب الاول من محاضرة لرئيس تحرير المقتطف

روما القديمة » وسائر الفصول على هذا النمط . وهي تتفاوت طولاً من نحو صفحات إلى ثلاثين صفحة أو أربعين . وطلب المصنف . العلامة البرت ينشتين ، أن يكتب فصلاً في «العلم والدكتاتورية» فكتب فصلاً في عبارتين اثنتين ولم يزد . قال : « الدكتاتورية تعني كمّ العقول والافواه فالطاقة الصور والهدم . وامّا العلم فلا يزدهر الاّ في جوّ من الحرية » . وقول اينشتين ، فيه فصل الخطاب . لا لانه اينشتين ، ولكن لأن اينشتين لخص في عبارتيه حكمة أيدتها دهور متوالية من تاريخ الارتقاء الانساني

ذلك بأن نواة الصلة بين العلم والدكتاتورية من جهة ، ثم بين العلم والديمقراطية من جهة اخرى ، هي صورة الحرية ومنزلتها في الاجتماع البشري — في ارتقائه الفكري وفي تطوّر نظمه السياسية والاجتماعية والاقتصادية جميعاً

العلم والحرية

لست أعرف انقلاباً في العصر الحديث ، أعظم شأناً ، وأبعد أثراً في الحضارة والحياة ، من الانقلاب الاجتماعي الذي أساسه تطبيق قواعد العلوم الطبيعية على مقتضيات العمران . فقد سيطر الانسان بالعلم على مائة غير يسيرة من عناصر الطبيعة وقواها ، واستخدمها في قضاء مآربه ، فتضاعفت قوته ، وزادت ساعات فراغه ، واتسعت قدرته على الانتاج . وقواعد العلوم الطبيعية و . استعمالها له . تدخل في كل كبيرة وصغيرة من حياتنا سواء أفردية كانت ام قومية ام دولية . وقد أصبح المهندسون من جهة والكيميائيون من جهة أخرى في منزلة مبدعين ، يبارون الطبيعة في استحداث كل عجيب مفيد . انهم صيّروا الأرض كالكرة التي يلهو بها الطفل ، بما سخّروه من وسائل المواصلات والمخاطبات السريعة

فاليوم أبطأ ما تكون رسالة ان لفّت عاجلها بريش القشعم
حمل أوكلت الفضاء يؤدّها شرراً ان أقصى مدى متبسّم
فتخيّر بالقطبين طرسٌ دائر والبرق أسرع ما ترى من مرقم (١)

كلّ هذا وغيره كثير جديد ، يعود تاريخه الى مختتم القرن الماضي . ولرجحان ان بين الاحياء الآن كثيرين ممن شهدوا يذكرون الهندسة الكهربية وأربابها وهم يحاولون اثبات وجودهم في العقد الثامن من القرن الماضي . أو يذكرون الانباء الاولى عن التلفون وكيف قوبلت بالاعراض والريب ، حتى وليم طمسن ، مشهور لورد كلفن ، أعجب وعجب حين رأى التلفون حقيقة واقعة يراها ويسمعها بعدما تناهى اليه خبرها . ان هذه

(١) من قصيدة خليل مطران في الاحتفال بكشف المذرعن لتمثال المصور الشيخ ابراهيم الهلوجي

الاطفال العلمية — اذا استعملنا لفظ فرادي في وصف هذه المستنبطات الجديدة — تَمَّت واشتدَّ ساعدها ، فزادت سيطرة الانسان على الطبيعة سيطرة وقوة ، فهو اطول عمراً ، نتيجة لهذه البحوث والكشوف ، وأوفر راحة وأوسع علماً ، وأعظم قدرة على الانتاج . وعلى الرغم من هذا الصراع الرهيب ، أقول إنه أفهم لضرورة السلام والتعاون

ولكنَّ هذه المخترعات والمستنبطات ، التي نطلق عليها غالباً صفة « العلم » ليست في الواقع إلاَّ ثمرَ شجرة « العلم » ، ومع أنَّ الثمر يانع ، فلا كيان لهُ بغير الشجرة ، ومع ان الشجرة حاية ، وجذورها ممدَّة في تربة تغذيها وتمدُّها بعناصر الحياة ، فكيان الشجرة نفسها ، متصل بهذه التربة ، فاذا جفَّت ونزعت منها العناصر التي تتقوَّم بها حياة الشجرة تعشى اليبس في جذعها وغصونها ، وسرى الذبول والذواء في ورقها وزهرها وثمرها . والتربة التي انتشرت فيها جذور شجرة العلم هي تربة « الاسلوب العلمي » وعنصر الحياة الأول في هذه التربة ، هو حرية البحث ومما تنطوي عليهِ من حريات أخرى ، كحرية النشر ، وحرية تبادل النتائج العلمية مع طوائف العلماء في كل مكان . اما العلم مذكراتهُ

ولعلَّ أعظم خدمة أسداها العلم ، وأمجدَ أثر تركهُ في حياة البشر العقلية والاجتماعية ، يتلخصان في عبارة واحدة : هي كشف الاسلوب العلمي . وليس ثمة ظلٌّ من الشك — على قول العلامة مليكن — في أن المعنى الخاص بعصرنا والصفة المميزة لحضارتنا عن كل حضارة سبقت ، انما هو كشف الاسلوب العلميّ ، والنتائج التي أسفر عنها تطبيقهُ

هذا الكشف لم يتمَّ في عصرنا ، ولكن آثارهُ المتعجمة لم تبد دانية القطوف ، جلية الاثر ، إلاَّ في النصف الاخير من القرن الماضي وما انقضى من هذا القرن . فما هو الاسلوب العلمي ، الذي نشير اليه ، وما سرُّ الطريقة التي جرى عليها غليليو في القرن السابع عشر ، فأفضت الى ما يعتقدهُ الفيلسوف هوايتهد ، بأنهُ أعظم انقلاب حدث في نظر البشر في الكون والحياة

يقوم هذا الاسلوب على المبدإ التالي : — في البحث عن الحقيقة ، لا تبدأ بمسلَّمات أو نظم فلسفية كما فعل فلاسفة الاقدمين على اختلاف مذاهبهم . ثم لا تعتمد الاقوال المستنبطة من مجرَّد التأمل في النفس ، وهو الطريق الذي جرى عليهِ أئمة الفلسفة المدرسية ، عندما كان المعلمون الأول من طراز أرسطو المرجع الاخير ، يقاس كل قولٍ جديد بما قالوا ، ويمتحن كل مستنبَط من الرأي بما طوَّرهُ بين دفتات مؤلفاتهم . فالتجريب هو المعتمد في الاسلوب العلمي ، هو محكمة الحقائق التي لا ترتبط ارتباطاً معيَّناً بفلسفة ما . قد يستعين العلماء الجاريون على هذا الاسلوب بطريقة الاستنتاج من مسلَّمات معيَّنة في مراحل معيَّنة من البحث .

ووضع النظريات ، وتبديلها بين حين وحين ، لا تدعة عنهما لتعليل الحقائق الناجمة . ولكن التجربة هي الصفة الأساسية والمرجع الأخير . والقرار لنتيجتها ، لا يتم إلا اذا أعيدت مراراً في كل مكان يبدو للباحث أن يعيدها ، وإلا اذا أسفرت في كل مرة عن النتيجة نفسها ، كائناً من كان المجرب الأول ، ومهما كانت مكانته بين علماء القوم وأعمالهم

هذه هي التربة ، التي تنمو فيها الشجرة التي نصفها عادةً بشجرة العلم . والبحث العلمي الجاري على هذا الاسلوب ، غايته توسيع نطاق المعرفة بكشف نواميس الطبيعة والحياة ، بغير نظر الى ما يحتمل في المستقبل من تطبيق عملي . فكلارك مكسويل ، لم يفكر في عجائب الراديو المتنوعة ، عند ما استخرج المعادلات ، التي أثبت بها وجود أمواج غير منظورة تشبه أشعة الضوء في النواحي التي تخضع لها . وعند ما أقبل هرتز على معادلات مكسويل ، وحاول إثبات صحتها ، أو خطأها بالتجريب ، لم يكن يفكر في عجائب الراديو . ولكنه أثبت وجود الأمواج ، فكان الثمر اليانع ، في التلغراف اللاسلكي ، والتلفون اللاسلكي ، والراديو ، ونقل الصور والمرئيات بهذه الأمواج الخفية

ان سرّ الحياة في هذه التربة ، ان قوام هذا الاسلوب ، هو حرية البحث . فالباحث الذي تمسّه فرائض الحياة ، وتوحي اليه أسرار الطبيعة بأصبع خفية ، ويكون ذهنه مهيأً ، عليه أن ينطلق خفيفاً من كل قيد ، الى حيث يقوده البحث . فاذا قال له البحث ، في العظم والدم والأحافير ، ان الانسان ، يمتّ بصلات كثيرة الى طوائف الحيوانات التي هي دونه ، فعليه أن يخضع للدليل ، ولو كان الأئمة من قبل قالوا بغير ذلك . واذا هداه البحث الى أن الأرض ليست مركز الكون انقاد الى النتيجة ، ولو كانت تخالف ما قاله بطليموس الاسكندري ، أو ما أخذت به الكنيسة . واذا تبيّن ان الاحتراق هو الاتحاد بالاكسجين ، أخذ به ولو قال رجال الثورة الفرنسية « ليست الثورة في حاجة الى العلماء » . واذا أيّدت الأرصاد قول المشتغلين في انحناء أشعة الضوء ، وجب ألا تنكره برلين لأن صاحب القول غير آري . وأن يقبله العلماء ولو أنكرته برلين

فاذا ثبتت حرية البحث ، سلب الاسلوب العلمي سرّ حياته ، واذا سلب الاسلوب سرّ حياته ، عاد الظلام يرين على العقول . والسلاسل تقيّد الفكر ، أي ان شجرة العلم ، يتمشى اليبس فيها رويداً رويداً ، والذبول يسري في ورقها وثمرها . ان جميع مخترعات الأرض ، وهي من شجرة العلم في منزلة الثمر ، مردّها الى ما كشف من نواميس الطبيعة ، وهي في منزلة الجذور

ان طريق حرية البحث ، وحرية الفكر ، كان الى العصور طريقاً وعراً ، قامت على

جناياته أنصاب لذكرى من حرق ، ومن قطع رأسه ، ومن عذّب ومن سجن ومن نفي ولكن اختبار الدهر ، أثبت عبر مرّ العصور ، أن طريق الحرية العلمية أجدى وأنفع ، وهم لذلك ، يرتابون في كل قيد يفرض ويناهضونه كما سأبيّن

ومن مفاخر الحضارة الاسلامية في إبان ازدهارها العلمي من ألف سنة ، أن الخلفاء والأمراء كانوا يبيحون للعلماء والباحثين حرية كاملة ، بغير نظر الى مذهب أو عنصر . ولاعجب في ذلك فالقرآن الكريم حثّ على العلم ، وقد كان الاسلام ديمقراطيًا ، والديمقراطية والعلم قوتان متفاعلتان . وهذه الحرية العلمية ، هي سرّ ما نفع به العرب الحضارة العالمية من من تراث علميّ قيّم

الحرية العلمية والدكتاتورية

من المظاهر التي تستوقف العناية ، في تاريخ العلم والحرية ، ان الثانية ، كانت مهداً من مهود الحرية الدينية وقبراً لها

فالجامعات ومعاهد العلم العالي ، لا تستطيع أن تؤدي مهمتها وتضطلع بنشر رسالتها ، إلاّ اذا أبيحت الحرية التامة لأساتذتها . فالحرية الجامعية ، ليست صفة تنتحلها طبقة مميزة من طبقات المجتمع البشري . ولكنها أداة لا يستغني عنها المجتمع ، في سبيل ما يحتاج اليه ، وهو تدريب الأجيال المتلاحقة من النشء تدريباً يمكنها من أداء الخدمة الى المجتمع على أوفى وجه تتيحه أحوال الزمن . أما في ما يتعلق بالأساتذة أنفسهم ، فهذه الحرية ، هي الحرية المطلقة التي تباح لهم ، ليست في أوسع معانيها ، ولا يجب ان تكون ، إلا نسبياً يؤخذ ويحتفظ به بالبحث والاتقان والاخلاص للحقيقة كما يرونها

وقد كانت الجامعات الألمانية ، في القرون الأخيرة ، في مقدمة المعاهد العلمية العالية ، التي طالبت بهذا الحق مطالبة قوية ، وفيها تمّ الاعتراف به تدريجاً . فقد أنشئت جامعة جوتنجن في سنة ١٧٣٧ ، وهي تعد في طليعة الجامعات الألمانية ، التي طالبت بالاعتراف بقيمة حرية البحث وحرية التعليم في الجامعة . ومع ذلك كانت مطالبتها في عهدها الأول منصبة على مقاومة الاملاء عليها من قبل الحكومة ، دون الاحتفاظ بحرية المعلمين في التعليم . ولكن في النصف الأخير من القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر والثلث الأول من القرن العشرين ، اتجه الاهتمام خاصًا وتدريجاً الى ضمان حق الباحث في السير وراء الحقيقة في ميدان بحثه ، أنّى قاده البحث . وهذا ينطبق على سائر الجامعات بوجه عام . وأمثله يتجلى في كلمة لتوماس جفرسن الديمقراطي الاميركي المشهور قالها في حفلة تأسيس جامعة فرجينيا سنة

١٨١٩ وهي «وتعرفون الحق والحق يحرركم» وهو من آيات الانجيل. ثم أضاف «ستقوم هذه الجامعة على الاعتراف بتعقل البشري بحرية لا تحد، لأننا هنا لا نخشى أن نسير وراء الحقيقة أنى قادنا السير، ولن نخشى التسامح مع أي خطإ ما دامت حرية نقده ومقاومته قائمة».

وفي يونيو من سنة ١٩٣٧ احتفلت جامعة جوتنجن الالمانية بانقضاء قرنين على تأسيسها. وكانت جامعة هيدلبرج قد احتفلت احتفالاً من هذا القبيل قبل سنة، فحضر المدعوون الى هيدلبرج، من معاهد العلم في أقطار الارض، ولكنهم شهدوا احتفالاً سياسياً، لاحفلاً علمياً وقوراً. فلما وجهت الدعوة الى جامعات اميركا وبريطانيا وفرنسا للاحتفال بعيد جامعة جوتنجن خشي ممثلو هذه الجامعات ان يكون احتفال جوتنجن، احتفالاً بانقضاء اربع سنوات على الحكم النازي، لا بانقضاء قرنين على تأسيس جامعة من أشهر جامعات المانيا، وهي جامعة خسرت في خلال اربع سنوات من الحكم النازي: نصف مدرسيها، ونصف طلابها و ١٥ في المائة من هيئة أساتذتها، وتحولت جامعة سياسية، بعد ما فقدت تقاليدها العريقة في حرية البحث. فاعتذر هؤلاء الممثلون عن تلبية الدعوة.

وفي وسعنا ان نبحث ما أصاب الجامعات الالمانية في الثماني السنوات الاخيرة، على أنه مثال للعلم في ظل النظم الدكتاتورية، تحت الموضوعات الآتية

١ — الموقف من الحرية الجامعية

٢ — الموقف من بعض العلوم ونظرياتها

٣ — الموقف من التبادل العلمي الدولي

١ — يعتقد النازي ان استاذ الجامعة يجب ان يخدم الدولة، لا بالبحث الحر الذي يفضي الى الحقيقة في ميدان بحثه، وما قد تفضي اليه هذه الحقيقة من تطبيق علمي تجني الدولة فائدته، ولكن بقبول المبادىء أو «الايديولوجيا» التي يقوم عليها نظام الحكم، ولا يكتفي بأن يقبل الاستاذ ما يفرضه عليه الحكام بل عليه ان يمارس. فالتجرد عن الهوى أو ما درجنا على تسميته بالموضوعية في العلم محتقر عندهم الآن، ومعدود مستحيلاً ومنافياً لروح الاجتماع.

وهذا مناقض لما درجت عليه المانيا، عند ما كانت جامعاتها في أوج ازدهارها، ومفخرة بين معاهد العلم العالي في الدنيا كلها، اليها تحدى ركائب طلاب العلم، وعلى أقطابها تنهال ألقاب الشرف وجوائز العلماء العليا. عندئذ كان يحق للاستاذ أن يقدم لفظ «فون» على اسم أسرته اعترافاً بشرف المنزلة التي بلغها، بغير نظر الى جنس أو مذهب. وكان لا يسبق «الهر بروفسر» في الاندية والبلاط الا كبار رجال الدولة والجيش، وكانت الجامعات

منتشرة في طائفة كبيرة من المدن ، وكان في بعضها كليات اشتهرت بعلم أو طائفة من العلوم مثل كلية الرياضة في جيوتنجن وكلية الفلسفة في برلين ، وكان الطلاب يؤمونها من انحاء الارض قاطبة

أما الآن فقد أغلق الالمان معظم جامعاتهم . وفقد الأستاذ منزلته إذ انصرف الطلاب سعياً الى منصب في الحزب بدلاً من تلقي العلم على أستاذ مشهور . وفي أثناء الاحتفال بعيد جامعة هيدلبرج ، قال برهارد رست ، وزير الثقافة ، في خطبته « ان الفكرة القديمة في العلم القائمة على الايمان بتفوق العقل قد ماتت » . ولم يكن ثمة شك وزير العدل دون زميله رست صراحة ، فقد قال في خطبته في جمعية أساتذة الجامعات « ان الموضوعية القديمة هذيان » . وقال « والاستاذ في الجامعة الالمانية عليه أن يسأل نفسه الآن سؤالاً واحداً هو : هل عملي العلمي يسدي خدمة ما الى الوطنية الاشتراكية » وقال كريك مدير جامعة فرانكفورت « لا نعترف بعلم الا العلم الذي يقبله النازي »

وقد طبقت هذه المبادىء وما هو شبيه بها ، تطبيقاً دقيقاً على نظام الجامعات ، فنزعت حقوق شتى من هيئات الأساتذة ، ومنحت للحزب أو للحكومة فأصبحت « الجامعات » — على قول الأستاذ هارستهورن أحد أساتذة كولومبيا وصاحب أوفى كتاب في موضوع « الجامعات الالمانية في ظل الوطنية الاشتراكية » — فرعاً من النظام السياسي الذي يسيطر عليه الحزب النازي . وكل أستاذ جديد يتقدم او يرشح للتعيين في جامعة ما ، يجب ان يقنع منتخبه بأن ولاءه « للفورر » لا يداخله ريب ، والامتناع عن اقسام يمين الولاء ، بعد اثبات هذا الولاء في الماضي ، حاسم في الحيلولة بين الأستاذ والتعليم ، بل قد يفضي ، ومن المرجح انه يفضي الى مساوىء أخرى بعضها . واذا اقسم يمين الولاء للفورر « لشأت بينها صلة — على قول ناطق رسمي باسم وزارة الثقافة — هي كصلة الرقيق بالأمير في عهد الاقطاع بالقرون الوسطى »

عجباً ! ان العلماء الذين بدأوا يأبون في عصر الإحياء ، أو العصر الذي تلاه ، ان يسلموا بما يقوله أرسطو ، لا يعلمهم بأن العقل يجب أن يبحث عن الحقيقة ، لا ان يستخرجها من أقوال القدماء ومؤلفاتهم مهما تسم منزلتهم ، وأن يكون حرّاً في بحثه لا يحتكم الا للدليل الماثل بين يديه ، هؤلاء العلماء ينظرون في ألمانيا الآن ، أن يقسموا يمين الولاء للفورر . وليس في هذا القسم من ناحية هذا البحث عيب ولا عليه اعتراض . ولكن اذا أقسموها أصبحوا منه في منزلة الرقيق للأمير السيد ، وعليهم أن يأخذوا عناصر نظرتهم ، بعد حتى النظرة العلمية البحت ، من الآثار الرسمية وهذا على رغم من انهم خلفاء

أولئك العلماء الذين قاوموا مساعي الملوك من قبل للتحكم في معاهد العلم وفقاً لرغباتهم وأهوائهم

وليس هذا التحكم في التعيين والعزل والنقل والاعفاء، كل ما هنالك، بل ان الجو الذي يسود الجامعات الالمانية الآن، هو جو دسّ وتحذّر وقطيعة بين الأصدقاء والزملاء

وقد روى الاستاذ هارتشهورن حوادث كثيرة منها القصة التالية وهي مثال. وملخصها ان أستاذين من الأساتذة كانا في أحد الأيام خارجين من حجرة المعلمين في جامعتهما، فوجدا حقيبة نسيها أحد زملائهما، ففتحاها ليعلما منها، حقيبة مَن هي، فوجدا أوراقاً كثيرة تحوي مذكرات عن حديثهما القريب في الحجرة، وحديث غيرهما من الاساتذة، وهي أحاديث يتبادلها الزملاء على الغالب للبث والشكوى في غير تحرّش أو قصد الاساءة الى الدولة. وكان واضحاً ان النية متجهة الى ابلاغ هذه المذكرات أو غيرها، الى السلطات الادارية أو الحزبية. والمكافأة عليها وعلى ما كان على شاكلتها، هي الحظوة والترقي في سلّم الحزب، وفي سلم العلم كذلك! وعرف القصة، وألفى صاحبُ المذكرات نفسهُ متقاطعاً من زملائه، فلما سأل عن السبب وقيل له في المذكرات، أجاب في غير يسير من الدهشة والسخرية «وهل تظنّ يا صاحبي انني وحدي بين الاساتذة في هذا»!

ومثل آخر. من عهد قريب أذاع مجلس أساتذة كلية الحقوق في احدى الجامعات الالمانية الجنوبية أنه وافق على رسالة الدكتوراه لأحدهم، ولكن موافقتهُ، يجب ألاّ تؤخذ دليلاً على انه يشاطر صاحبَ الرسالة رأيه النشوط والتأييد أقوى تأييد فيها وهو قرارٌ مألوفٌ في المعاهد العالية. ويتضح ان الرأي في هذه الرسالة لم يكن مما يفخر به النظام القائم، فوجّهت المجلة الرسمية «جرمنيك نوندشت» نقداً لاذعاً عنيفاً قوياً الى مجلس أساتذة هذه الكلية لانه أحجم عن النهوض بالتبعة الواقعة عليه كما يجب وكما ينتظر

ومن الوسائل الخفية التي تعتمد في اقصاء اساتذة معيّنين، لأن تعليمهم وعلمهم وموقفهم بوجه عام لا يروق الحزب، أن يُعهد الى استاذ ما من تولّي عمله في لجنة الامتحانات وذلك تجنّباً لاعفائه رسمياً من مهام منصبه، فلا يكون ذلك الاعفاء مثاراً للتأويل في انانيا أو للاعتراض والمناقشة خارجها. واذا ظهر الخبر بين الطلاب بان الاستاذ الفلاني لا يدعى الى تولّي مهمة الامتحان، بدأ الطلبة ينصرفون عن تلقي العلم عليه، ثم يظهر سحب الجامعة وليس امام اسم هذا الاستاذ عدد الطلاب الذين يحضرون دروسه، فيستدعيه الوزير أو من كان في منزلة الوزير، وقد يحتفي به ثم يسأله في براءة ودهشة ألا يظن أنه يحسن في هذه الاحوال ان يستقيل. والسؤال أمر مستتر. وفي الوقت نفسه يقبل الطلاب — وهم جميعاً اعضاء في هيئة ما

من هيئات الحرب - على الأساتذة الذين هم في المقام فيه . وقد يكون الفرق ، من حيث المكانة العلمية ، بين الأستاذ المتعلم ، والأستاذ الذي تزدحم في بيته وفود الطلاب ، كالفرق بين الصانع والشاعر ، أو بين المتمكن والمتعثر . والأمثلة على هذا الأسلوب وغيره كثيرة

٢ — الموقف من بعض العلوم ونظرياتها

تأبى الدولة النازية أن تأخذ بمذاهب علمية شتى ، يأخذ بها العلماء في بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وغيرها . وكان علماء ألمانيا أنفسهم قبل قيام النظام النازي ، يأخذون بها كذلك . والاختلاف في ما يُعَدُّ حقيقة علمية ، مباحٌ وهو كثير الوقوع ، الى أن تثبت الحقيقة بالتجربة والامتحان ، ويقوم عليها الدليل العلميُّ المقبول عند جمهرة العلماء . والاختلاف في النظريات العلمية أكثر ، وهو مباح كذلك ، لأن النظريات إنما توضع لتفسير طائفة من الحقائق العلمية المثبتة ولتنظيمها في صورة متسقة الأجزاء مفهومة . ولكنَّ أساس الاختلاف مردُّهُ في الحالة الأولى الى عدم وفاء الدليل ، وفي الثانية الى الاعتقاد بأن نظرية أخرى أولى بالغرض من نظرية معيَّنة . ولم نسمع في تاريخ العلم الحديث ان عالماً حرَّ يعتدُّ به ، أنكر حقيقة ، أو أبى الأخذ بنظرية ما ، لأن مكتشف الحقيقة أو صاحب النظرية ، من سلالة تختلف عن سلالته ، أو لأنه ديمقراطيٌّ أو شيوعيٌّ أو مسلم أو مسيحيٌّ . أما في ألمانيا النازية فرفض الأخذ بنظريات معيَّنة ، والاعتراف بعلوم معيَّنة ، يرتدُّ الى مثل هذه الأسباب . وتعرضه الدولة على علمائها ، لأنه يتفق ونظامها السياسيَّ والاجتماعيَّ أو يخالفه ، لا أكثر ولا أقل . ومع ذلك فالأسباب التي تستند اليها في رفض الأخذ بنظرية ما ، تتنوَّع وفقاً لرياح السياسة التي تكون عاتية في وقت ما . فقد نددت ألمانيا مثلاً بمذهب النسبية المقرون باسم انشتين . وليس جميع العلماء الأحرار مجمعين على الأخذ بكل مقتضياته . فمخالفته أو مخالفة بعض أجزائه ومقتضياته ، ليس منكراً لذاته . ولكن الدولة النازية نددت به لأنه قطعة من « الشيوعية اليهودية » ، مهما يكن معنى هذا القول . ولكن حتى الدولة النازية لم تلتزم جادَّة التماسك في التنديد بهذا المذهب . فقد وصفته « بالشيوعية اليهودية » قبل عقد الاتفاق الألماني السوفياتي في شهر اغسطس من سنة ١٩٣٩ . فقد عقد ذلك الاتفاق أسقطت لفظة « الشيوعية » من التنديد لتلافي وصم الروس باستعمالها ، ووُصف مذهب النسبية عندئذٍ بأنه مثل بليغ على التفكير اليهودي المعوج المشوش . ترى ماذا نصفه الآن ، لو دعا المقام الى وصفه وبين الروس والألمان ما بينهم ؟ !

وعلماء ألمانيا الذين قبلوا النظام النازي يذهبون كلَّ مذهب في تسويغ مجاراتهم لحكامهم .

واني لأضرب مثلاً على ذلك بأحد أعلامهم فيليب ليناردو وهو ذو مقام عالٍ وحائز جائزة نوبل الطبيعية وقد أطلق اسمه على معهد خاص بالبحث الطبيعي الفيزيائي في جامعة هيدلبرج. هذا العالم يزعم ان النورديين دون غيرهم أسدوا خدمات جليلة وأضافوا اضافات عظيمة الى العلم. وقد يكون العالم الطبيعي عالماً كبيراً ومحققاً متفرقاً ولا يكون دقيق العلم بالتاريخ. وقد يلتمس العذر للاستاذ ليناردو في هذا. ولكنه ألف كتاباً في سير العلماء من فجر التاريخ فالاطلاع على ما أسدته الشعوب المختلفة الى الارتقاء العلمي مفروض فيه. ولكن الروح الغالبة في الجامعات الالمانية — التي قدمت وصفاً مرجزاً لها — تحمل على الظن ان ليناردو مجار لأسياد المانيا السياسيين، ناسياً أو متناسياً ما أسداه العرب مثلاً من خدمات جليلة الى العلم، بحفظهم كنوز المعرفة القديمة من الضياع واضافتهم اليها اضافات جليلة ثم نقلها الى أوربا حيث كانت احدى الدعائم الكبرى التي قام عليها عصر الاحياء في العلوم. وناسياً أو متناسياً كذلك ما أسدته الفرنسيون والايطاليون والبولونيون واليهود وغيرهم من خدمات وما أضافوه من اضافات عظيمة الشأن

وقد كتب الاستاذ بيربلخ، أحد أساتذة جامعة برلين مقالات ندد فيها بطريقة اليهود في معالجة الرياضيات. وهو واحد من جماعة من الاساتذة تذهب الى أن الرياضيات «علم أطفال» وان الالمان هم الذين كشفوا اللانهائية الرياضية، وان غرض الرياضيات كغرض الوطنية الاشتراكية هو تحويل الفوضى الى نظام. وهذه الآراء وغيرها مبسوطة مبذولة في رسائل تؤيدها وزارة الثقافة الالمانية، وهي تزعم ان السلالة النوردية متفردة بشعورها الدقيق «بالمدى اللسيح» وانه من الواجب على كل مدرس ان يغذي هذا الشعور لينقي به الأطفال الالمان. المنطق الذي يُعتمدُ لعنة الرياضيات عند الشعوب اللاتينية واليهود

ونظرة النازيين في الصلة بين العلم والدولة نظرة مرنة تتحول وفقاً للغرض السياسي. وقد قدمت مثلاً على ذلك في ما قالوه عن النسبية. وهاهو ذا مثل آخر على هذه المرونة، في ما يقولونه عن الآري واوصافه. عندما تولوا الأمر في المانيا كان الكلام مصبوباً على الآري الأشقر، الأزرق العينين، المستطيل الرأس، المخلوق حاكماً أو سيداً للناس. ثم ظهر أن هذه الأوصاف لا تنطبق كل الانطباق على البقاريين ولا تنطبق انطباقاً ما على اليابانيين. وهنالك ما يشير الى أن اليابانيين برموا بذكر أوصاف تلمح من طرف غير مباشر الى أنهم طبقة منحطة من البشر. في حين كان هتلر وروسترب يحطان ودهم قبيل عقد اتفاق مقاومة الشيوعية في سنة ١٩٣٧. فغيرت الأوصاف وقررت أكاديمية القانون الالماني في مستهل سنة ١٩٣٨ أن ألفاظ «الآري» و«الدم الالماني» و«الدم المتصل بالدم الالماني بصلة القربى» يجب أن

يستعمل بها لفظ «السلالة الآرية» . وليس هناك في علم الأجناس سلالة آرية . فلما اشتد النزاع الألماني البولوني ، وكان من المتعذر إنكار بعض الأوصاف المتقدمة على البولونيين — وبخاصة لأن بعض البولونيين تجري في عروقهم دماء جرمانية ، وكثير تجري في عروقهم دماء سقلبية ، وهي متصلة بصلة القربى بالدماء الجرمانية ، والحالة السياسية تقضي بمعاملة الروس — انتقل الاهتمام في الكتابات الألمانية من الأوصاف والصفات الجثمانية ، الى العناصر التي تدخل في تركيب « الروح الجرماني » . وكذلك وصف البولونيون بأنهم غير جرمانيي الروح ، بغير أن يوصفوا وصفاً يسيء الروس — حينئذ — ولا فيه تلميح اساءة الى اليابانيين ، الذين وصفوا بأن عناصر روحهم تتفق وعناصر الروح الجرماني

قد يكون كلُّ هذا سياسةً بارعة ، ولكنه حتماً ليس علماً

ومتى ذكر بولونيا أويد أن أضرب مثلاً على موقف النازي من العلم والمعاهد العلمية في البلدان المحتلة ولبابة إخماد روح الشعب الخاضع بإبادة علمائه الذين قد يكونون نواة لنهضته العقلية . فعندما خضعت بولونيا للحكم النازي . دُمِّر معهد الطبيعة التجريبية في جامعة وارسو ، ونقلت جميع معداته العلمية الى الريخ . وأعدم الاستاذ بيالوبرزسكي أستاذ الطبيعة النظرية ، وهو من العلماء الممتازين . وفي جامعة كراكوفيا — وهي من أقدم الجامعات الاوربية — دعي اعضاء هيئة التدريس إلى اجتماع يلقون فيه تفسير مبادىء الوطنية الاشتراكية لكي يعرفوا ما عليهم ان يلقنوه طلابهم . فلما خرجوا من حجرة الاجتماع وجدوا مركبات تنتظرهم في الخارج فنقلوا بها الى المعتقلات ، ثم صدرت صفحةٌ اتهامهم فاذا هي تحتوي على تهم ثلاث

اولاً — حاول الاساتذة ان يبدأوا دراساتهم الجامعية بغير ان ينبئوا السلطات الالمانية .

ثانياً — انهم مضوا في التعليم وفي امتحان الطلبة بغير ان يستأذنوا في ذلك . ثالثاً — ان جامعة كراكوفيا مافتئت من خمسة قرون معقل الروح البولوني

ومن الجائز ان التهمة الاولى والتهمة الثانية : من الجرائم التي يعاقب عليها في البلدان المحتلة في اثناء الحرب — اذا صحّت — ولكن يلوح ان التهمة الثالثة هي بيت القصيد في صفحة الاتهام هذه وهي « ان جامعة كراكوفيا ما فتئت من خمسة قرون معقل الروح البولوني »

وقدمات ثمانية عشر من الاساتذة في المعتقل الاول ونقل خمسون الى معتقل آخر ليشتغلوا بتكسير الحجارة ، والباقون أطلق سراحهم بعد ذلك . وما وقع في كراكوفيا وقع مثله أو على نحطه على تفاوت في جامعات ثبنا ورابج وڤرسوفيا وكوبنهاجن واوسلو وبروكسل وليدن واوترخت ولوڤان وغيرها

وخلاصة القول في هذه الناحية من الموضوع ان الدولة النازية تنكر حرية العالم وتعدّ

العلم أداة تلاعب بها وفقاً لأغراضها السياسية، وتفكر للعلماء الذين لا يحاربونها ولو كانوا آريين من صميم الآرية ، وتفكر لهم على اطلاق القول اذا كانوا غير آريين . ان اقطاب العلم المعترف بهم في جميع انحاء العالم . وقد مات فرتز هابر بعيداً عن المانيا منتحراً وهو الذي أنقذها في الحرب العالمية الماضية من قلة الغذاء وفقد المواد المفرقعة . واينشتين منفيٌّ وقد نزعت جنسيته الالمانية وصودرت أملاكه ومقتنياته . وغيرهم عشرات مثل شرويدنغر وبورن في علم الطبيعة وماير هوف في علم وظائف الاعضاء وفرويد وكوهلر في علم النفس وفردينندلش في الطب. ويقول الاستاذ نيدهام Needham استاذ الكيمياء الحيوية في جامعة كمبردج ان الفاً وثماني مائة وثمانين عالماً من الطبقة الاولى أعفوا أو طردوا من جامعات المانيا والنمسا بين سنة ١٩٣٣ وسنة ١٩٣٨ ومنهم ٢٥ في المائة من ثلاثي جوائز نوبل العلمية من الالمان والنمسويين . وليسوا جميعاً من اليهود

ويقول نيدهام كذلك ان معامل بحث متعددة قد ألغيت وفرّق رجالها مثل معهد «رونا» للكيمياء الخائر (الازيمات) ومعهد « اردمان » لتربية الانسجة وبحث أشكال الاحياء (Morphology) ومعمل «ماير هوف» لبحث فسيولوجية العضلات . وقد بقي بعض تلاميذ ماير هوف في المانيا — مثل لومان Lohman — ولكنهم لم ينشروا بحوثاً جديدة خلال سنوات . ثم ان علم الاجنة التجريبي علم وضع أسسهُ عالمٌ ألماني هو فلهلم رو Roux وهو من أهم الأركان التي تقوم عليها علوم الاحياء . ولكن أكبر علمائه مشردون الآن وكرسي سبمان — وهو شيخ هذا العلم في المانيا — في جامعة فريبورج يشغلهُ رجلٌ كان في ما مضى يُعدُّ عالماً كبيراً في علم الاجنة ولكن جلّ اهتمامه الآن منصرف الى الطيران الحربي

٣ — الموقف من التبادل العلمي الدولي

ليس ثمة ريب ، في ان التبادل العلمي الدولي ، من أسرار تقدم العلم الحديث . وقد تكفي عبارة عابرة في رسالة علمية تكتب في المانيا ، لتحرك ذهن باحث اميركي ، الى كشف خطير الشأن . وهذا وقع فعلاً في استنباط « السيكلوترون » او الجهاز الرحوي الذي يمكن أصحابه الآن من صنع مواد مشعة من عناصر غير مشعة بالنضيحة . ومن هنا فائدة المؤتمرات العلمية ، والمجلات العلمية التي تنشر فيها انباء البحوث الاصلية ، وتبادل الاساتذة بين بلد وآخر . ولكن الباحث الالماني مقيَّد بشتى القيود التي تحول دون هذا التبادل او تحدُّ كثيراً منه . فاذا تلقى دعوة من معهد اجنبيّ للتدريس ، او لتولي البحث في احد معاملهِ ، او من هيئة علمية معترف بها ، لحضور مؤتمر من مؤتمراتها ، فعليه أولاً ان يقدم تقريراً الى مدير الجامعة أو الى وزارة الثقافة عن كل دعوة يتلقاها من هذا القبيل . وهذا أمر لا

يعترض عليه . ولكنه — أي الباحث أو الأستاذ — لا يستطيع أن يقبل دعوة ما من هذا القبيل إلا بموافقة الوزارة وعليه أن يعرض على الوزارة كل خطاب يجري أن يلقيه أو كل رسالة يقصد أن يذيعها أو أن ينشرها ، حتى ولو كان بينها مقالات أعدت للنشر في المجلات الالمانية . وفي جميع هذه الحالات لا بدّ من موافقة الزعيم النازي المحلي لعصبة مدرّسي الجامعات . وجميع الاوراق التي تبيح له قبول الدعوة يجب ان ترسل الى وزارة الخارجية ومكاتب حكومية اخرى ويتعين عليه في اثناء اقامته في الخارج أن يبقى متصلاً بممثلي المانيا الدبلوماسيين أو ممثلي هيئة الحزب المحلية ، وبعد عودته عليه أن يعدّ تقريراً يحتوي في ما يحتوي عليه ، مشاهداته السياسية

واذا تقرّر ارسال وفد لحضور مؤتمر علميّ في الخارج ، عيّن قائد ذلك الوفد من أعضاء الحزب الذين يصحّ الاعتماد على ولائهم . فالتبادل العلمي الحرّ ، في مثل هذه الاحوال بين الوفد الالماني ووفود سائر الامم متعذّر ، والاتصال ببعض الزملاء الالمان المقيمين في الخارج صعب أو مستحيل . وقرارات كل مؤتمر علمي يحضره وفد ألمانيّ ، في مسائل علمية بحت ، لا يجوز لهذا الوفد قبولها إلا اذا كانت موافقة للتعليمات الصادرة اليهم من الحكام

وليست هذه القيود مقتصرة على الصادر العلمي من المانيا ، بل هي مفروضة كذلك على الوارد العلميّ اليها ، من محاضرين وكتب ومجلات . والحجة البيّنة في الرسوم الوزاري الصادر في ٩ يناير ١٩٣٥ على هذا الموقف هي : ان بعض المحاضرين أعربوا عن آراء لا تدلّ على انهم من أولئك الاجانب المرغوب فيهم للمحاضرة في الجامعات الالمانية من ناحية السياسة الثقافية . حقّا ان المانيا فرضت بيديها على نفسها حصراً عقليّا

وفي سنة ١٩٣٧ حظر دخول مجلة نايتشر الى المانيا ، لأنها احتجت على معاملة العلماء غير الآريين في المانيا . ومجلة نايتشر من المجلات العلمية العالمية ، التي تؤدي خدمة التبادل العلمي الأممي على خير وجه ، في جميع بلدان العالم . وقد يبلغ عدد الرسائل العلمية الأصلية التي تنشر فيها في سنة واحدة الف رسالة ، من علماء ومجمّات في ثلاثين بلداً أو أكثر خارج بريطانيا . وفي طليعة العلماء الذين يراسلونها بنتائج أبحاثهم ، لتعرض على أنظار علماء العالم ، هم العلماء الالمان . وعلى الرغم من قانون الحظر الذي حال بين مجلة نايتشر وبين العلماء الالمان ، ظلّ ناشرو الكتب العلمية من الالمان يرسلون الى ادارة هذه المجلة الكتب التي ينشرونها — الى أن نشبت الحرب — ليتولّى مراجعتها ووزنها ، علماء متوفرون على موضوعاتهم مزهون في إبداء الرأي عن كلّ حرّ وغرض

(في الجزء الثاني بحث في العلم والنظم الديمقراطية)